

أصدقاء الحركة الموحدة في دمشق

الدكتورة اكتمال اسماعيل

جامعة دمشق - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم التاريخ

أصداء الحركة الموحدية في دمشق

شكلت العلاقات المشرقية المغربية محور اهتمام كبير لدى الكثير من الباحثين والدارسين على حد سواء ذلك أنه منذ إتمام عملية فتح الأندلس والمغرب، قامت علاقات بينها وبين بلاد الشام على أكثر من صعيد، وقد تفاوتت هذه العلاقات من حيث أهميتها ونشاطها، فكانت ذات زخم كبير ووتيرة عالية في الميدانين الاقتصادي والثقافي، ففي الميدان الاقتصادي ازدهرت التجارة بكل أنواعها وتفرعاتها بين بلاد الشام والمغرب والأندلس، وكذلك الأمر في الميدان الزراعي والصناعي حيث تبودلت الخبرات والعلوم والمعارف حول ذلك.

أما في الميدان الثقافي فقد نشطت حركة قوية بين البلدين، وذلك لأن الأندلس والمغرب كانتا بحاجة ماسة إلى ثقافة وعلوم المشرق، وظلت هذه الحاجة قائمة حتى وقت متأخر من القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي/، عندما استقل المغاربة والأندلسيون، وراحوا يشقون طريقهم معتمدين على أنفسهم، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد، وتفوقوا على المشاركة في عدد من الأمور الثقافية، وعلى الرغم من أنهم ظلوا ينظرون إلى المشرق نظرة احترام وإعجاب وتقدير^(١).

وقد استقبل المغاربة والأندلسيون على هيئة طلبة علم وتجار زائرين، لتختلف الصورة فيما بعد وتصبح بلاد الشام من أهم أقطار المشرق العربي بالنسبة للمغاربة والأندلسيين الذين قصدوها واستقروا فيها وأصبحوا من رعاياها بلا معارضة أو قيود، وقد اشتغلوا فيها بحرية تامة في كل المجالات العامة دون أن يواجهوا أدنى عقبة، حيث أنهم فضّلوا في أحيان كثيرة على الشاميين أنفسهم^(٢).

وما يدفعنا لهذه المقدمة موضوع البحث ألا وهو أصداء الحركة الموحدية في المشرق العربي. ولحسن الحظ فإن تلك الأصداء سوف نستقرؤها من الرسالة الوحيدة

التي ذكرها المؤرخ حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المعروف بابن القلانسي (٤٧٠-٦٦٦هـ/ ١٠٧٧-١١٦٠م) في كتابه تاريخ دمشق، وفيما أعلم بأنه المصدر الوحيد من المصادر الشرقية الذي حوى رسالة من رسائل الموحدين، وهذه الرسالة تمت إلى عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي.

وكان قد وصلنا من المكتبة الأندلسية المغربية عدد من الرسائل يتصدرها مجموعة الرسائل الموحدية التي نشرها ليفي بروفنسال، هذه الرسائل التي كان الموحدون ومن قبلهم المرابطين قد اعتادوا على إرسالها، إما للدعوة أو الإنذار أو لغايات أخرى.

ومن المحقق أنه لا يمكن قراءة تلك الرسائل بكل أوجهها ومقارنتها مع ابن القلانسي دون شك، بمعزل عن معرفة من هم الموحدون؟ وكيف نشأت دولتهم؟ وما هي التنظيمات التي بينت عليها دولتهم؟ إضافة إلى معرفة أوضاع بلاد الشام في تلك الحقبة؟

وبناء على تلك الأسئلة نستطيع القول: هم الذين ينتسبون إلى الفقيه محمد بن تومرت، الذي ولد سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) في قبيلة مصمودية تسمى أرغان أو هرغان، والتي عربت إلى هرغة، ويلقب ابن /بامغار/ ومعناه العالم الفقيه^(٣). وفي الكتاب الذي كتبه خادمه أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبليزق نجد أن ابن تومرت يوصف بأنه /أمغار أن سوس/ أي فقيه السوس.

درس ابن تومرت في مراكش، وحوالي سنة (٥٠١هـ/ ١١٠٧-١١٠٨م) بدأ في رحلة طويلة إلى المشرق، وتفاصيل هذه الرحلة موضع شك لدى بعض الباحثين لأن ابن تومرت يقول أنه وصل فيها بغداد ودرس على أبي حامد الغزالي، ويروي أحاديث دارت بينه وبين حجة الإسلام، غير أن هناك بعض الباحثين يستبعدون هذه الرحلة لأسباب منها: أن الغزالي رحل إلى طوس سنة (٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) ولم يعد

لبغداد أو دمشق ثانية، ثم توفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م) فإذا كان ابن تومرت قد غادر بلده سنة (٥٠٦هـ/١١٢م) فهو قطعاً لم يلق الغزالي.

ويرجع هؤلاء بأنه قد وصل إلى الإسكندرية وربما إلى القاهرة، وأطال المكوث في مصر والقيروان حيث ألم بجانب كبير من العلم^(٤).

وقد تصدى ابن تومرت لإنشاء كيان سياسي هو حركة الموحدين ونظمه على طريقة مبتكرة ولم يجعل نفسه خليفة أو سلطاناً، بل مهّد الطريق لعبد المؤمن بن علي لكي يبلغ الرئاسة السياسية والدينية ويتمتع هو وبنوه بالملك وما يتصل به^(٥).

وكان ابن تومرت قد التقى بعبد المؤمن بن علي الكومي في تلمسان، وينتمي عبد المؤمن إلى قبيلة زناتية كانت تسكن في قرية تاجر، وقد أصبح عبد المؤمن كبير تلاميذ ابن تومرت وقد فضله على غيره لذكائه وإخلاصه وعقله^(٦).

ولكن ما هي القبائل التي قامت على أكتافها دولة الموحدين؟

من خلال تتبع الحوادث التاريخية يلاحظ بأن أهم هذه القبائل هي: القبائل المصمودية القوية التي تسكن جبال الأطلس الكبير في المغرب الأقصى (درن) وتضم تحت لوائها هرغة، هزرجه، هزميره، هسكورة، هيلانة، هنتاته، وكانت الأخيرة أكبر تلك القبائل فأفرادها يعدون بالألوف ويسكنون الطرف الشرقي لسهل السوس والهضاب المؤدية إلى جبال الساحل أو الأطلس العالية^(٧).

والجدير بالذكر أن محمد بن تومرت توفي بعد أن بذر البذرة الأولى لتأسيس تلك الدولة ليكمل الطريق من بعده تلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي. وإذا تأملنا شخصية عبد المؤمن من خلال ما ذكرته المصادر، نلاحظ بأنه تمكن من أن ينشئ حركة دينية سياسية كبرى من لا شيء، فما كان بصاحب طريقة صوفية، ولا صاحب علم واسع وإنما هو فقيه متوسط العلم، بدأ حياته داعياً إلى المعروف ناهياً عن المنكر، وبعد ذلك تتطور حياته ويقوم بتوحيد أنحاء المغرب وبعض أجزاء من الأندلس. فقد

امتدت دولته من خط وادي أنه في الأندلس إلى وادي درعه في جنوبي المغرب، وترامت من المحيط الأطلسي إلى طرابلس^(٨).

أما أهم التنظيمات التي قامت عليها دولة الموحدين: هي مجلس العشرة ومجلس الخمسين ويقال مجلس السبعين^(٩).

ولكن أليس من المفروض الإحاطة بأوضاع المشرق في تلك الآونة حتى يتم الغرض من دراسة الرسالة؟ كانت أوضاع المشرق في ذلك الحين غير مستقرة، فالدولة العباسية قد هبطت إلى درك سحيق من الضعف وكانت الخلافة اسمية فقط، بينما كان الحكم الفعلي للسلطين السلاجقة الذين أحكموا قبضتهم على مقاليد الأمور. وكان الاحتلال الصليبي لأرض الشام آنذاك في عنفوانه، إضافة إلى أنه كانت كل من أسرتي الزنكيين والبوريين تتقاسمان سلطات دمشق وحلب وحمص وحماء، فدمشق، كانت في تلك الآونة تحكم من قبل البوريين الذين تنازعوا مع عماد الدين الزنكي وابنه نور الدين محمود من بعده، فقد توالى على حكم دمشق كل من طغتكين وابنه تاج الدين بوري وابنه الذي تعرض منذ مطلع حكمه لمؤامرات الباطنية وهجمات الصليبيين^(١٠).

وتعرضت ولايته لمطامع عماد الدين الزنكي، وتوفي سنة (٥٢٦هـ/١١١٣م) بعد أن أوصى بالولاية من بعده لولده شمس الملوك اسماعيل الذي قتل غيلة فتولى الحكم أخوه شهاب الدين محمود^(١١)، وهكذا ظل البوريون يحكمون دمشق حتى استطاع نور الدين محمود بن زنكي دخولها وتوحيد بلاد الشام كلها تحت سلطته. وفي المقابل كان الزنكيون يتولون حكم حلب.

هذا بالنسبة إلى بلاد الشام، فقد كانت تحكم من قبل الفاطميين وعلى ما يبدو أنه كان هناك عداوة بين الفاطميين والموحدين وربما يعود لأسباب سياسية أو دينية وهذا ما سنحاول عرضه من خلال الحديث.

بعد كل ما ذكر أعلاه أصبح من الضروري عقد مقارنة بين رسائل بروفنسال ورسالة ابن القلانسي من أجل استخلاص أصداء تلك الحركة في دمشق، ونحن فسي غنى عن التذكير بما يعتبر هذا الموضوع من صعوبات نظراً لانعدام تلك الرسائل في مؤلفات مؤرخي المشرق العربي وانحصار ذكرها فقط في كتاب ابن القلانسي، ولكن أليس من المفروض الاستفسار عن الدواعي التي حدثت بابن القلانسي إلى ذكر تلك الرسالة؟ وما هي الطريقة التي وصلت بها تلك الرسالة؟

إن مجرد اهتمام ابن القلانسي بالمغرب وذكره لتلك الرسالة وقبلها روايات نقلها فقهاء مغاربة عن الأوضاع في عصر الموحدين في تلك الآونة، دليل على متابعة ما جري في المغرب العربي، وهذه المتابعة دليل على بقاء وحدة المشاعر ووحدة التاريخ، وبالتالي فإن اهتمامات ابن القلانسي تعود لعدة أسباب أهمها الأسباب السياسية إلى جانب الأسباب الإنسانية والاجتماعية المتمثلة في صلة القربى والأمال المشتركة والتاريخ المشترك، وهذا كله يدل على أنه كان هناك صدى كبير لتلك الحركة في المشرق وقد أكد ذلك حين قال:

(وكان قد ورد من فقهاء المغاربة من وثقت النفس بما أورده، وسكنت إلى ما شرحه وعده.

وحضرت كتب من أهل المغرب إلى أقاربهم ببعض الشرح ورافق ورود ذلك في سنة (٥٤١هـ) بالتواريخ المتقدمة والحكايات المختلفة، فرأيت ذكر ذلك في هذا المكان^(١٢).

إن دل هذا على شيء فهو يدل على الاتصالات القائمة بين بلدان المشرق العربي وبخاصة بلاد الشام، وبين المغرب العربي وقد أشار إلى ذلك ابن القلانسي عندما ذكر أن علاقات القربى هي أحد أسباب تلك الاتصالات.

والمعروف تاريخياً بأن المغاربة وردوا إلى المشرق العربي في هذه الحقبة

لنتلقي العلم أو الإقامة. وقد خصص لهم الأمراء أماكن لإقامتهم وزوايا ليدرسون فيها وتشهد على ذلك الزاوية المالكية في الجامع الأموي.

ولم يكتفِ ابن القلانسي بذكر تلك الروايات والكتب بل أشار إلى طريقة وصولها حيث قال:

"أما أخبار المغرب، والحوادث فيه، فلم تسكن النفس إلى إثبات شيء من طوائع أخباره، وما يؤخذ من أفواه تجارِهِ، وقد أفردت من أحوال الخوارج فيه، والفتن المتصلة بين أهليه من الحروب المتصلة وسفك الدماء وما لا تنق النفس به، لاختلاف الروايات وتباين الحكايات" (١٣).

ولكن من الصعوبة الإجابة عن الأسباب التي دعت ابن القلانسي لذكر أخبار الحركة في سنة (٥٤١هـ)، مع العلم أنها نشأت في حقبة مبكرة عن هذا التاريخ، وربما يكون مرد ذلك إلى أسباب سياسية قاهرة ناجمة عن المجازر التي ارتكبت في هذه الآونة، ولاسيما أن الحاكم كان الخليفة عبد المؤمن بن علي (٥٣٤-٥٥٨هـ)، ومع ذلك تبقى الأمور في حدود الفرضية.

والمنتبِع لأخبار المغرب عن ابن القلانسي يرى بأن المؤرخ بدأ حديثه منذ ظهور محمد بن تومرت وقد نعتَه بالقباب وألفاظ قاسية ربما تدخلت فيها أحاسيسه وعواطفه سيما أنه كان المتلقي لتلك الروايات والرسائل من أشخاص جاءوا من المغرب العربي ومن أهم تلك الأوصاف أنه كان سفاكاً للدماء مفسداً، مخالفاً للشرعية الإسلامية وفيما يلي نورد ذلك: "ومبدأ ذلك على ما حكى ظهور الفقيه أبي عبد الله محمد بن تومرت من جبل السوس، ومولده به، وأصله مسمودي، وكان غاية في التفقه والدين، مشهوداً له بالورع والزهد، وكان قد سافر إلى العراق، وجال في تلك الأعمال، ومهر في المناظرة والجدال، واجتمع بأئمة الفقهاء وأخذ عنهم وسمع منهم، وعاد إلى ناحية مصر وما والاها واجتمع مع علمائها، وقرأ عليهم، ثم عاد إلى

المغرب ودعا إلى مذهب الفكر وابتداء ظهوره في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة في مدينة تعرف بذرن في جبل /أوله/ في البحر المحيط وآخره في بحر الإسكندرية في (رأس أوثنان)، وغلب على جبل السوس، واجتمع عليه خلق كثير من المصامدة بجبل درن، وقيل أنه وصل إلى المهديّة^(١٤).

ثم يتابع سرد الحوادث بأن فقهاء المهديّة لم يتقبلوا فكره فاقترضى خروجه منها إلى بجاية، حيث قام بالإنكار على أهلها شرب الخمر وعمد إلى تكسير الأواني، وتابع بعدها حتى دخل أغمات، حيث أصبح معه ٤٠٠/ رجل من المصامدة^(١٥).

إن قراءة متأنية لنص ابن القلانسي ينتج عنها أولى الإشاعات لعدم قبول سكان المشرق للدعوة الموحدية، هذه الدعوة التي لم تكتب بحقها أية كلمة إيجابية. فلو كانت مقبولة لكتب عنها الكثير ويثبت ذلك كثرة الأوصاف التي أطلقها على ابن تومرت فقد قال عنه عند دخوله إلى أغمات: "ارتفع أمره وظهر شره"^(١٦).

وتبيّن المناظرة التي جرت بين ابن تومرت وبين أحد الفقهاء بحضرة علي بن يوسف بن تاشفين بأنه غلب على أمره حيث قيل له: "ينبغي أن يأمر الأمير بحبس هذا المفتن ليكشف سره، ويحقق أمره ويظهر لكافة المسلمين صحة خبره، فإنه لا يريد غير الدنيا والسلطنة والفساد في الأرض وقتل النفوس"^(١٧).

ويستطرد ابن القلانسي في نصه الحديث عن قتال ابن تاشفين والمعارك التي كانت بين المرابطين وبين الموحدين حتى يأتي إلى ذكر وفاة ابن تومرت وتسلم عبد المؤمن بعده حيث يقول: "وخلف جماعة من تلامذته وأصحابه، سلكوا سبيله، وبنوا على بنائه، وسلكوا مذهبه في الفساد وتولد بينهم مذهب سموه ("تكفير الذنب" هذا ما أورده وحكاه وشاهده واستقصاه الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الصقلي بإملائه من لسانه)^(١٨).

ويبدو أن تكفير الذنب هو ما يعرف في المصادر المغربية والأندلسية باسم

(التمييز)، حيث كانت تجري مذابح كبيرة جداً سواء كان ذلك في أيام حكم محمد بن تومرت أو خليفته عبد المؤمن بن علي من بعده.

فقد أوردت المصادر التاريخية الكثير عن هذه المذابح منها ما قام به عبد المؤمن في تلمسان^(١٩) حيث قُتل فيها مئة ألف من سكانها^(٢٠)، وإلى جانب ما ارتكبه في فاس، فيعد استيلائه عليها قتل معظم سكانها، أما بالنسبة لمدينة مراكش فكان الأمر مختلفاً تماماً فقد حاصر المدينة وقطع الأقوات عنها، حتى أكل الناس الجثث البشرية، وأكل السجناء في السجن بعضهم بعضاً، وأفضى الجوع والضيق والأمراض على شنيع الأطعمة إلى موت كثير من السكان خصوصاً من الشباب والأطفال حتى فنى منهم في وقت قصير حسبما تؤكد الرواية العربية زهاء مائتي ألف نفس، وكان الأحياء يطوفون بين الموتى كالأشباح، ولما دخل الموحدون المدينة فعلوا فيها فعل الذئاب المفترسة بالأغنام، فقد ارتكبوا المجازر حتى غمر المدينة سيل مروع من الدماء، واستمر القتل من الصباح حتى المساء^(٢١).

لكن ما أوردته المصادر عن الأفعال تجاه العرب كان أكثر. فقد جمع عبد المؤمن العرب من بني رياح كانوا بأفريقية واستحلفهم على قتال المشركين في الأندلس وطلب منهم عشرة آلاف فارس فأجابوا بالسمع والطاعة غير أن هؤلاء نكصوا الوعود وأرادوا العودة، فلما علم عبد المؤمن برجوعهم بعث أولاده فقاتلهم، ويقال أنه جمعت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل القرن فكانت كالثلج العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد^(٢٢). حتى أن المؤرخ المشرقي عز الدين ابن الأثير ذكر في ترجمة عبد المؤمن أنه كان كثير البذل، كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير، وكان يلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة، ومن روي وقت الصلاة غير مصل قتل^(٢٣).

وذكر ابن القلانسي أن: "الأخبار وصلته من ناحية المغرب بظهور عبد المؤمن فلقب بالمهدي أمير المؤمنين وخليفة المهدي إلى سبيل الموحدين، واجتمع إليه من كان

في حزبه من طوائف السوس، والبربر، والمصامدة، والمرابطين، والملثمين مالا يحصى له عدد، ولا يدركه أمر، وشرع في سفك الدماء، وافتتاح البلاد المغربية بالسيف والقتل لمن بها من الرجال والحرم والأطفال ما شاعت به الأخبار وانتشر ذكره في سائر الأقطار^(٢٤).

والمتتبع لما ورد من قبل، يلاحظ بأن جميع المؤرخين اتفقوا على أن عبد المؤمن كان سفاكاً سفاكاً للدماء، لم يميز بين الأطفال والنساء والشيوخ وغيرهم، لكن ابن القلانسي انفرد برواية لم يأت بها غيره، وهي أن عبد المؤمن تلقب بالمهدي، وهذه الصفة أطلقت على ابن تومرت فقط، بينما اتخذ هو صفة خليفة وأمير المؤمنين وهناك روايات كثيرة حول هذه التسمية.

ومن يراجع الدراسات التاريخية بعين ثاقبة يسترعي انتباهه عزوف هذه الدراسات عن بحث أمر الرسائل الموحدية التي جاءت من المكتبة المغربية، وربما يكون هذا ناتج عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، لا سيما وأن تلك الرسائل هامة جداً لأنها تعكس واقع المنطقة في حقبة تعد هامة جداً للباحثين. وعلى الرغم من الصعوبات التي تعترض الباحث إلا أن عليه المتابعة للتعرف على حقيقة تلك الرسائل واستخلاص النتائج.

وبناءً على ذلك لا بد من عقد مقارنة بين الرسائل الموحدية التي نشرها ليفي بروفنسال ورسالة ابن القلانسي لمعرفة الحقبة الزمنية الحقيقية التي كتبت فيها تلك الرسائل، وهل هي متشابهة أو مختلفة مع رسالة ابن القلانسي؟

في البداية يلاحظ بأن عدد الرسائل الصادرة عن الخليفة عبد المؤمن بلغت ثلاثاً وعشرين رسالة، إلى جانب تعدد كتابها، وتباين تاريخ وفاة هؤلاء الكتاب. أما بالنسبة لرسالة ابن القلانسي فليس لها كاتب معروف.

وعند دراسة أنماط أسلوب الكتب الصادرة عن الخليفة نلاحظ تعدد تلك

الأنماط، ففي رسائل بروفنسال نلاحظ ثلاثة أنماط:

١- النمط الأول تفتتح فيه المكاتب بلفظ من فلان إلى فلان. مثلاً من أمير المؤمنين إلى الطلبة أو المشايخ الذين بسبته أو بفاس أو بمراكش أو غيرها من مدن المغرب^(٢٥).

٢- النمط الثاني تفتتح فيه المكاتبه أما بعد حمداً لله^(٢٦).

٣- النمط الثالث فتكون المكاتبه فيه بالحمد لله^(٢٧).

وبالعودة إلى رسالة ابن القلانسي نلاحظ أنها اتبعت أسلوب النمط الأول من الرسائل المتقدمة أي من أمير المؤمنين، لكنها معهم بالأشخاص الموجهة إليهم فهي موجهة إلى سبيل الموحدين إلى أهلية.

"من أمير المؤمنين، وخليفة المهدي إلى سبيل الموحدين إلى أهلية"^(٢٨).

بعد ذلك يعقب المقدمة في رسائل بروفنسال الصلاة والسلام على النبي محمد (ص) وعلى آله وصحبه أجمعين، ثم يذكر مناقب النبي وأخلاقه الحميدة، يتلو ذلك ذكر الإمام المهدي الذي نلاحظ وعلى مدار صفحات الكتاب بأنه وصف بأحلى وأنبلى الصفات فمثلاً قيل عنه: "الإمام المعصوم المهدي المعلوم، وليه الذي تقبل سبل الهداية واقتفاها، وأقام رسوم الشريعة على الرغم من جحدها ونفاها، فأنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أجر من جاهد واجتهد... إلخ"^(٢٩).

وهذه مقتطفات أيضاً من وصف المهدي:

"الإمام المعصوم، القائم بأمر الله، قيام من كان لله ولرسوله ولكافة المؤمنين خير نصيح..، والداعي إلى ما أمر الله بالدعاء إليه علي ما جبله عليه من صحة بالهداية وتصحيح".

ثم يتابع لأنه "سبب النجاة والخاص والمأمّن من نوائب الانتكاس والانتقاص،

والموعد بالظهور والاستيلاء والانتقام من عدائه والاقتصاص.. هو ستره الذي أضفاه على أوليائه سترأ وسدلاً.. وبه إن شاء الله تأمنون من كل ما خامركم نبل روعه، وتصلون إلى ما حال دونه صرم الزمن وقطعه^(٣٠).

وذكر كتاب الرسائل بأن المهدي ذكر في الرسائل السماوية جميعها، فقد ذكر في المزامير، وقد ذكره النبي (ص).

وعموماً فالقول والتوحيد والمهدية وعصمة الإمام لدى الموحدين كلها دعوات سياسية استخدمها ابن تومرت في تحقيق غاياته، فالمهدي هنا معصوم من أن يناله أحد بأذى، والله سبحانه وتعالى يعصمه حتى يتم رسالته^(٣١). والمفروض أن المهدي يعرف الغيب، ولديه قوى خارقة لعمل المعجزات والكرامات، وهذه كلها صفقات لم توجد في ابن تومرت، كما أنها في نظر أهل التوحيد صفات لا يتصف بها غير الخالق، وهو سبحانه وتعالى لا يأذن في الإتيان بالخوارق إلا لمن يشاء من الرسل^(٣٢).

ومن خلال قراءة الرسائل وقراءة تاريخ الموحدين تتضح لنا الأسباب بالقول بالمهدية وتتجلى في أن عبد المؤمن كان مضطراً للقول فيها لأن ذلك هو السند الشرعي الوحيد الذي قامت عليه ولايته، فهو خليفة المهدي، والمهدي هو الذي اختاره للولاية، ولهذا عمل على الاستئثار من الطلبة وجعلهم لسان الدعوة لمذهب المهدي وعصمته^(٣٣).

وقد خلت رسالة ابن القلانسي من كل تلك المقدمة واقتصرت على البسمة والصلاة على سيدنا محمد (ص) وآله الطاهرين ثم انتقلت إلى خطاب المقصودين، فهل يا ترى حذف ابن القلانسي ذلك؟

بعد تحليل المقدمة لا بد من استعراض ودراسة صلب هذه الرسائل من حيث الموضوعات التي عالجتها وأيضاً من حيث الشكل.

إن موضوعات الرسائل عند بروفنسال تراوحت ما بين موضوعات حربية أو

غزوات مثل غزو الروم والنصارى الذين تحامل عليهم خلفاء الموحدين، وقد وصفهم الخليفة عبد المؤمن بألفاظ قاسية ونعتهم بالكفر وخير مثال على ذلك ما ورد في الرسالة السادسة عشرة وهي في فتح المرية، وأبذوت، وموت السليطين، أمير النصارى حيث قال:

"ألم يكن هذا الكافر الخاسر عجل الله بنفسه إلى النار، وأحله متبوأه من دار البوار، يشمخ بأنفه، ويعرض تأني عضفه، وهاهو مجدل بحتفه ومبدل من حياته ونجاته بنفسه وخسفه" (٣٤).

وحوت الرسائل موضوعات اجتماعية كدخول القبائل في المغرب أو في الأندلس في دعوة الموحدين، أو مواضيع إصلاحية كالإصلاح الذي دعت إليه كل الرسائل التالية، السابعة، العاشرة، الثالثة والعشرون، فقد ورد في الرسالة السابعة:

"فبادروا وفقكم الله إلى إجابة منادي الحق وداعيه واسعوا إلى الخير بأعماله المزلفة ومساعيه وسارعوا بالتوبة النصوح تسارع الراغب بدينه المقبل إلى ما يعنيه الصارف نفسه عن ما كانت تكسب من الإثم وتجنّيه. واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة إتيان هذا الأمر العزيز في محل قيامه، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله وارتفاع أعلامه" (٣٥).

على أنه يجب ألا يغيب عن الذهن المواضيع السياسية المطروحة في الرسائل مثل تنصيب أبناء الخليفة خلفاء من بعده.

وسواء أكانت الموضوعات المطروحة في الرسائل سياسية أو اجتماعية أو إصلاحية أو حربية فإنها تمثل لنا من الوجهة التاريخية بياناً مبشراً ودقيقاً لأهم الحوادث التي وقعت في أيام الموحدين، ومن الوجهة الثانية تبين لنا تطور الآداب بالديار الإسلامية الغربية حيث تعرض نماذج عن فن الكتابة الرسمية في العصر الموحي.

ولدى الانتقال من مواضيع رسائل بروفنسال إلى موضوع رسالة ابن القلانسي نرى اختلافاً كبيراً، فعند التعمق في دراسة النص الذي بين أيدينا نكشف النقاب على أن النص عبارة عن تهديد ووعد، والملاحظ أنه غير معروف لمن هذا التهديد، ولكن من المؤكد أن الخليفة قد خاطب الحاكم أكثر من مرة ولم يستجب لطلبه وذكر ذلك عندما قال:

"ياعضد الفجار، وعناد الفساق الأشرار، فقد كاتبناكم بالبنان، وخاطبناكم بالبيان، حتى سار كالبدر، واستمر مروز الدهر، فلم تجيبوا ولا أطعتم بل تناقلتم عن الحق وعصيتم، فانتظروا سيف الدم يهلككم وحجارة المدر تنمغكم، ثم لا يكون لكم استرجاع، ولا يقبل فيكم استشفاع"^(٣٦).

إن التهديد والوعد والغدر هو صفة من صفات الموحدين. فالخليفة عبد المؤمن حرص على القضاء على كل من تطلع إلى جاه أو سلطان من غير أسرة عبد المؤمن، كما أن محمد بن تومرت الخليفة المهدي غدر بجماعات من قبيلة هزيرة المصمودية، فبعد أن أعطاهم الأمان وتركوا سلاحهم انقض عليهم رجاله وأنزلوا بهم منبحة بشعة. وفرق ابن تومرت سلاحهم وما كان معهم من مال على أنصاره ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي غدر بها وإنما غدر بأصحابه كأبي محمد عبد الله بن محسن الونشريشي الملقب بالبشير^(٣٧).

والواضح أن هناك تساؤلاً ملحاً يفرض نفسه وهو لمن وجه هذا الكتاب، هل المقصود الخليفة العباسي، أم الخليفة الفاطمي أم السلطان الأيوبي؟

نستطيع القول بأنه مستبعد تماماً أن تكون الرسالة موجهة إلى الأيوبيين لأن الدولة الأيوبية لم تكن قد قامت بعد، إنما قامت علاقات بين الأيوبيين والموحدين أيام أبي يوسف يعقوب المنصور الذي حكم (٥٨٠-٥٩٦هـ/١١٨٤-١١٩٨م).

كما أنه مستبعد تماماً أن تكون وجهت إلى الخليفة العباسي لأن الخلافة

العباسية كانت تعاني من الضعف والانحطاط وكان يسيطر السلطين السلاجقة على بغداد. والرأي المرجح أن الرسالة قد وجهت إلى الخليفة الفاطمي، ومما يؤكد هذا الترجيح أن بعض المؤرخين قد ذكر بأن المكاتبات الصادرة عن الخلفاء الموحدين إلى أهل الكفر كانت تخرج برسم: أما بعد، ويختم الكتاب بلفظ (والسلام على من اتبع الهدى)^(٣٨). وهذا ما تأكد من خلال قراءة الرسالة فكانت خاتمتها على الشكل التالي: (والسلام على من اتبع الهدى هدا، ولم يغلب عليه هواه ورحمة الله وبركاته)^(٣٩).

إلى جانب أن الفاطميين أعداء "الإمام المهدي" مرتبة دينية وظلوا يرتبطون مع المغرب بصلة التواصل والموقع الجغرافي وهذا ما أثار حفيظة الموحدين الذين عدوهم منافسيهم الحقيقيين.

وعند الانتقال من صلب الرسائل إلى الخاتمة عند بروفنسال، نلاحظ أن نهاية أكثر الرسائل كانت تنتهي بالدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، والتمسك بأهداب الدين الحنيف، ثم تختتم بعض الرسائل بذكر سنة الانتهاء من تاريخ كتابتها. نسوق مثلاً على ذلك ما ورد في الرسالة الأولى. "قبادروا -رحمكم الله- إلى طاعة الله العلانية والنجوى، وشدوا أيديكم على هذا الجبل الأمتن الأقوى، واعلموا أنكم راحلون، فترودوا، فإن خير الزاد التقوى، وحافظوا -أصلحكم الله- على إخلاص النيات، والتزام الصلوات، وسائر أعمال الطاعات، وتلاوة القرآن والتوحيد، فهي أكرم التلاوات واصفحوا، وأصلحوا، وتعاملوا بالخير تفلحوا وافرخوا أبواب الرحمة بإيمان الإيمان تستفتحوا، وواظبوا على تغيير المنكر وأتمروا بينكم تتجحوا، واشتغلوا بدينكم اشتغالاً، والتزموه التزاماً يخصكم على الدوام ويحرصكم..."^(٤٠).

وهذا يعني بأن نهاية الرسائل كانت تتسم بالطول وهي تقف على طرفي نقيض بالنسبة لرسالة ابن القلانسي التي اتسمت نهايتها بالقصر والاختصار إلى جانب عدم ذكر للسنة التي كتبت فيها هذه الرسالة:

"السلام على من اتبع الهدى هداة، ولم يغلب عليه هواه ورحمة الله وبركاته" (٤١).

وبعد الانتهاء من عقد المقارنة بين تلك الرسائل من حيث الشكل والموضوع أصبح لزاماً علينا دراسة تلك الرسائل من حيث السمات العامة والمنهج، وهذا يقودنا إلى دراسة التراكيب اللفظية، وأسلوب الكتابة وغير ذلك.

من الواضح أن رسائل بروفنسال اتسمت من حيث الشكل بأنها حوت على مقدمة وصلب وخاتمة ما عدا الرسالة الحادية عشرة فقد وجدت مبتورة الرأس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ بأن تلك الرسائل كانت تتفاوت في الطول والقصر، إلى جانب أن الرسالة العاشرة منقولة من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي.

ومما يسترعي الانتباه على الطرف الآخر بأن رسالة ابن القلانسي حوت على مقدمة وصلب وخاتمة ولكنها قصيرة جداً، فالخليفة دخل الموضوع مباشرة حيث ذكره أما بعد، ثم تابع الموضوع.

وتكشف لنا الرسائل عند بروفنسال أيضاً تعدد أساليب المخاطبة، فقد تراوحت تلك الأساليب بين أسلوب الأمر كما في الرسالة الأولى والرسالة الثانية والعشرين وهذه بعض الكلمات التي تدل على ذلك (اعلموا، حافظوا، اصفحوا، تعاملوا، اقرعوا أبواب الرحمة، واطبوا على تغيير المنكر، اشتغلوا بدينكم).

وأسلوب الوصف الذي ظهر في الرسالة السادسة عشرة عند مراحل (الفتح) من قبل الموحدين وكيفية دخول القبائل في طاعة الموحدين، وإلى جانب أسلوب الترهيب ولكن هذا ما قل استعماله.

وكان أسلوب التهديد والترهيب الغالب صياغة على رسالة ابن القلانسي وخير دليل على ذلك قوله: "انتظروا ألا يكون لكم استرجاع، ولا يقبل فيكم استشفاع، تأهبوا للموت" (٤٢) وإلى غير ذلك من الكلمات المستخدمة وبالتالي كان هذا الأسلوب قاسياً

جداً وهذا يتواءم مع أسلوب الموحدين القائم على سفك الدماء وعلى الغلو في الأفكار وغيرها.

وتمتاز رسائل بروفنسال بلغة متينة، بليغة، جزلة بأسلوبها، ولا عجب فقد عرف ذلك العصر هذا النوع من الأسلوب في الكتابة سيما وأن محرري هذه الرسائل يعودون إلى العصر الأندلسي، وإلى البلد الأندلسي.

وتتسم التراكيب اللفظية بسمتين: السمة الأولى الغموض والصعوبة، والسمة الأخرى هي السهولة والبساطة، وإلى جانب استخدام بعض الكلمات الجارحة والقاسية مثل شقي -لعنة الله- ذئاب الغارة وكلابها الأوباش. ولم يخل مضمون الرسائل من المحسنات البديعية كالتشبيه والكناية والاستعارة والسجع وغير ذلك، فقد استخدم السجع تقريباً في كل الرسائل حتى أنه لم تخل منه أية رسالة وهذه مقتطفات مما ورد في الرسالة الخامسة.

"أما بعد حمداً لله فاتح الفتوح، وواهب الخير للممنوح، والصلاة على محمد نبيه الأمين النصيح وعلى آله وصحبه الأخذين بأخذه المحض، وقصده الصريح" (٤٣).

ومن الرسالة العاشرة اقتطفنا هذا المقطع:

"الحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العون لأوليائه والأقدار، وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار، والصلاة على محمد نبيه الذي ابتعثت بمبعثه الأضواء والأنوار عمرت بدعوته الأنجاد والأغوار وخصم بحجته الكفر والكفار" (٤٤).

ومع ذلك لم يخل أسلوب رسائل بروفنسال من رشاقة وامتعة على الرغم من تراكم التفاصيل، وكثرة الأماكن والإعلام، وهذا ما افتقدته رسالة ابن القلانسي، فالكلمات التي أستخدمت فيها سهلة جداً، وتدل على أن كاتبها كان لا يتمتع بأي ثقافة أدبية تساعده على الصياغة الأدبية الجميلة التي وجدناها في رسائل بروفنسال.

صفوة القول أن رسائل بروفنسال أعِدَّت من قبل عدد من الكتاب لذلك اختلفت الأساليب، كما أنها كتبت في فترات متباعدة وبالتالي كل واحدة تتعلق بمناسبتها، والمرجح أن جميع الكتاب الذين كتبوا الرسائل هم أندلسيون. فالفن واللغة العالية كانت من سماتهم، كذلك كان كتاب الدولة المرابطية أندلسيين.

وبالتالي فإن رسالة دمشق تثير عدة تساؤلات من أهمها، هل ما نشره بروفنسال يمثل فقط نماذج من الرسائل الموحدية أو مما صدر عن ديوان الموحدين؟ هل هذه الرسائل جمعت فيما بعد في كتاب أو مجلد قائم بذاته، لاسيما أنه وصلنا من الأندلس مجاميع تحتوي هذا النوع؟

وهل يعني أو قد يشير إلى أن الذي جمع ربما نقح أو زاد أو أنقص أو لطف؟ إلى جانب تساؤل هام عن رسالة دمشق ويتمحور حول المخاطب في هذه الرسالة لماذا لم يذكره ابن القلانسي، فإذا كان ملكاً أو خليفة لماذا لم يخاطب على قدر مقامه بالسيادة والرفعة؟

من المرجح أن رسائل الموحدين تُلطِّفت وصُنِّفت في مرحلة تالية لاسيما أنها تتشابه مع الرسائل التي كتبت في عصر أبناء عبد المؤمن وأحفاده، لكن الرسالة التي أثبتتها ابن القلانسي ترقى إلى وقت صدورها ولا شك في أصالتها، وهنا تتبع أهميتها ووثاقيتها، وهي أعلى من وثاقية رسائل بروفنسال لكون ابن القلانسي أتى بها عند الحديث عن أخبار المغرب، وأورد كيف وصلت هذه الرسالة، وهذا يدل على أن الاتصالات كانت مستمرة ما بين بلاد الشام وبلدان المغرب العربي على الرغم من كل شيء. خاصة أن مؤرخي بلاد الشام كانوا يهتمون كثيراً بأخبار المغرب، هذه الأخبار التي كانت تصل مع المسافرين والتجار منطلقين في ذلك بأن دمشق في تلك الحقبة كان يقطنها مجموعة كبيرة من المغاربة والذين ظلوا فيها لأمد طويل.

وأخيراً يمكن القول أن رسالة ابن القلانسي ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ

الموحدين، فهو المؤرخ المشرقي الوحيد الذي نقل رسالة من رسائل الموحدين كانت أكثر واقعية وأصالة، وترقى إلى العصر الذي كتبت فيه، وهي تمثل الواقع الذي كان يعيشه الموحدون، لذا أثارت عدداً من التساؤلات حول السبب الذي دفع كتاب الرسائل إلى إهمالها وبالتالي فقد كانت السبب في الجدل الذي أحيط بالرسائل العديدة عند بروفنسال، وقطعت الشك بأنها تتمتع بالأصالة، وأن الرسائل الأخرى من صنع الكتاب وربما ليست من صنع عبد المؤمن وخلفائه.

المصادر والمراجع

- ١- زعرور، ابراهيم: "القضاة الأندلسيون في بلاد الشام"، مجلة دراسات تاريخية، عدد ٥٤/٥٣ سنة ١٩٩٥م، ص ٦١.
- ٢- زعرور: مجلة دراسات.
- ٣- المراكشي، عبد الواحد: وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق د. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ٦٩.
- ٤- المراكشي: المصدر نفسه، ص ٧.
- ٥- المراكشي: المصدر نفسه، ص ٧.
- ٦- المراكشي: المصدر نفسه، ص ٧٢-٧٥.
- ٧- المراكشي: المصدر نفسه، ص ٧٦-٩٧-٩٨.
- ٨- المراكشي: المصدر نفسه، ص ٩٥-١١٣.
- ٩- المراكشي: المصدر نفسه، ص ١٥٧-٢١٧-٢١٨-٢٠٧.
- ١٠- ابن الأثير، عز الدين: (ت. ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، ١٣ جزء، دار صادر بيروت، ١٩٧٩/١٢٩٩هـ، ج ١٠، ص ٦٣٢-٦٥٦-٦٥٧.
- ١١- ابن القلانسي، حمزة بن أسد: (ت. ٥٥٥هـ): تاريخ دمشق: تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان، الطبعة الأولى: دمشق، ١٩٨٣م/ ١٤٠٣هـ، ص ٢٤٧-٢٤٨.
- ١٢- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٣-٤٥٤.

- ١٣- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٣.
- ١٤- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٤.
- ١٥- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٥.
- ١٦- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٥.
- ١٧- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٥.
- ١٨- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٦.
- ١٩- أشباح، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٤٠م، ص ٢١١.
- ٢٠- أشباح: المرجع نفسه، ص ٢١١.
- ٢١- أشباح: المرجع نفسه، ص ٢١١-٢١٣.
- ٢٢- ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٤٧.
- ٢٣- ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٩٢.
- ٢٤- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٧.
- ٢٥- بروفنسال، لافي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية: المطبعة الاقتصادية، الرباط، رسائل الموحدين: جميع رسائل عبد المؤمن.
- ٢٦- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ٩٣-الرسالة الثامنة عشر.
- ٢٧- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ١٢١-الرسالة الثانية والعشرون.
- ٢٨- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٧.
- ٢٩- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ٥-الرسالة الثالثة.
- ٣٠- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ١٦-الرسالة السادسة.

- ٣١- المراكشي: المصدر نفسه، ص ٧٨.
- ٣٢- المراكشي: المصدر نفسه، ص ٩٧.
- ٣٣- المراكشي: المصدر نفسه، ص ١٥٧.
- ٣٤- المراكشي- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ٨٠ - الرسالة السادسة عشرة.
- ٣٥- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ١٨-١٩.
- ٣٦- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٧.
- ٣٧- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ٧٨-٩١-٩٢.
- ٣٨- القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: عشرة أجزاء، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧، ج ٦، ص ٤٩٦.
- ٣٩- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٣، الرسالة الأولى.
- ٤٠- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ٣- الرسالة الأولى.
- ٤١- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٧، ج ٦، ص ٤٩٦.
- ٤٢- ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٥٧.
- ٤٣- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ١٠.
- ٤٤- بروفنسال: المرجع نفسه، ص ٣٥.

